

١٢

بطاقات إسلامية

أنور الجندى



على طريق الأصالة الإسلامية
١٢

بطاقات إسلامية

بقلم
أنور الجندي

دار الأنصار
مكتبة - طباعة - نشر - توزيع
٨٦ شارع البستان ناصية ش الجمهورية عابدين
ت ٩٣١٥٨١

بطاقات إسلامية

• ما هى المشاعر التى تمتلىء بها نفس المفكر المسلم وهو على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى ؟

وما هى الكلمات التى تقال لشباب الإسلام تطلعاً إلى الفكر الإسلامى الذى يواجه أخطر التحديات المتمثلة فى ذلك النفوذ الأجنبى الوافد من خلال التغريب والغزو الثقافى من قوى الاستعمار الغربى والشيوعية والصهيونية العالمية . . ؟

• إنها كلمات طامحة بمثابة نقاط على حروف الأحداث . . من خلال الإيمان الذى لا يتزعزع بأن هذه الأمة سوف تنتصر نصراً مؤزراً ما تمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ونزعت عنها ربقة التبعية والتقليد وواجهت الحياة بشريعتها ونظامها الإجتماعى وأقامت مجتمعها الربانى واستطاعت بذلك أن تقدم الإسلام للعالمين ليحرر البشرية من أزمتها وصراعها وتمزقها وماديتها التى دمرت الحضارة العالمية » .

انور الجندى

• منذ أن شكل الإسلام لونه المميز على خريطة العالم، وهو عالم مستقل له طابعه المفرد وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ومنهجه المتكامل المتجدد الجامع، بالتوحيد والإيمان والأخلاق، ومنذ ذلك اليوم وللمسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يحيدوا عنها تهوى إليها قلوبهم بالإيمان والفكر والنظر .. ولم يكن لهم بعدها من ذلك اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قبلة أخرى، وما تزال الكعبة المشرفة وستظل مركز الدائرة في أرض الاسلام، هذه الوسطية الإسلامية هي وسطيات ثلاث :

• وسطية إقليمية جغرافية بالنسبة لموقع الإسلام في العالم، ووسيطه ثقافية وحضارية وتجارية وسياسية .. ووسطية سلوكية قائمة على التعادل والتوازن الاجتماعي بين الفرد والمجتمع، وبين المادة والروح والدين والدولة . والدنيا والآخرة .

قد وضع الإسلام حلولا لثلاث من أكبر قضايا البشرية على مدى العصور وهي العنصرية والقبلية والطبقية :

شجب الاسلام العنصرية : وأحل محلها الأخاء ..

شجب الاســـلام للقبلية : وأحل محلها التعارف..

شجب الاسلام الطبقية : وأحل محلها التضامن

فالإسلام يرفع البشرية عن التفاضل بالأجناس والألوان والأنساب. وهو حين يقر وجود الأمم والشعوب يدعوها إلى الارتفاع فوق العنصرية والعصبية إلى الإخاء الإنسانى العام.. وهو حين يحرر الفكر من الوثنية والتقليد والتبعية يحرر النفس من التبعية والخضوع لغير الله.. ويقيم المجتمع على التعاون لا الصراع وعلى الشورى لا الاستبداد. وعلى الاخاء البشرى لا الخصومة.

كذلك فقد قطع الامتداد الفكرى والثقافى بين ما قبل الإسلام وما بعده : فنزع البشريا من عبودية الوثنيات.. وعبودية الإنسان للإنسان : للفرعون والقيصر وقطع إمتداد الوثنية فى العالم كله وأطلق العقل البشرى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد ورفعه إلى الاعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة.

• من أعظم ما يقدمه الإسلام للفكر المعاصر فكرة التكامل بين القيم ، فهو يقدم لها مفهوم ترابط العقل والقلب . . والدين والعلم . . والدنيا والآخرة .

فالهدف هو عطاء الإنسان الكامل لقلبه وعقله وجسمه .. بحيث لا يجد فراغاً في قلبه ولا تخلفاً في عقله ولا نقصاً في كيانه ، وأن يعيش بكل ما في قوى العقل والنفس والروح والوجدان ، جامعاً بين أشواق الروح ورغائب الجسد ، كذلك فإن الإسلام يقدم مفهوم ترابط الأجيال وأن كل جيل مكمل للجيل السابق له ويمهد للجيل التالي عليه . . وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين إبتداء هذا أقام بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه . . وكل إنسان مكلف بأن يبني حجراً ويضع لبنة في بناء البشرية . . فتراث السابقين ملك للحاضرين ينتفعون بصالحه ويتوقون أخطاءه ، والأمة كلها تمضي حلقة بعد حلقة وجيلا بعد جيل في إطار العقيدة والمنهج الذي بناه لها الإسلام لا تخرج عليه ، وتتحوط من الانحراف وتحتفظ بالذاتية الخاصة التي صبغ الإسلام بها وجودها وتفتدي هذه الذاتية بكل

تقدم مادى .

— ٣ —

• على المسلمين أن يحذروا من الذين يشككون فى السنة ، ويزعمون أن القرآن الكريم وحده يكفى فى بناء منهج المجتمع أو الاعتقاد والعبادات ، ذلك لأن السنة جزء من العقيدة الإسلامية لا تنفك عنها والإسلام يقوم على الكتاب والسنة معاً ومن لم يؤمن بالسنة فإنه لا يؤمن بالقرآن .

• وإن من أخطر الدعوات التى توجه إلى المسلمين تحت اسم التسامح وهو ليس منها هو إزالة الفوارق بين الأديان وتشويه التوحيد بالتعدد والوثنيات .. فعليهم ألا يقبلوا ما هو ليس من دين الله الحق وإنما من تفسيرات رجال الدين . وليعلم المثقفون المسلمون أن ثقافتهم الإسلامية ينبغى أن تقوم على أصول قرآنية موثقة . وقد نسخ الإسلام الشرائع السابقة .

— ٤ —

• إن الإلزام والمسئولية والجزاء هى قاعدة الأخلاق

الإسلامية ، فلا مسئولية بلا إلزام وإذا سقطت المسئولية تفشى الفوضى وفسد النظام ، ولا يمكن أن تسود العدالة . والإنسان مسئول عن عمله اليومى فى الحياة الدنيا ولا يسأل الإنسان عن عمل غيره ، ولا عما لا يعلم أنه مكلف به ولا عن أعماله غير الإرادية ولا عما أكره عليه . وللجزاء ثلاثة ميادين : أخلاقى وقانونى وإلهى .

والإنسان مكلف وهو كائن ناقص ، ولكنه فى الوقت نفسه قابل للكمال فلابد من العمل ، وهو مسئول عن عمله ، ووجوده توق دائم ضد كل الشرور .

— ٥ —

بين الحق تبارك وتعالى أن العالم قائم على الحق . (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق) وأنه لا تبديل لسنة الله فى الخلق ولا تحويل (فطرة الله التى فطر الناس عليها) واستقلال الفطرة (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) .

وقد قرر الإسلام أن للوجود الإنسانى سنناً لا تتحول

ولا تتبدل . . عاملة لا تزال . . عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها حتى تبلغ الغاية التى ترمى إليها ، وأن هذه السنن مطردة مستقلة عن الزمان فما يثبت فى سننها فى وقت لابد أن يكون موجوداً من قبل ، وسيظل موجوداً فى المستقبل فلا يلحقه تغيير ولا تبديل .

وهذا يعنى إستحالة التناقض بين الحقائق فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان وكيفما ظهر وما يناقض الحق فهو باطل . .

— ٦ —

. العقيدة وليست اللغة هى علاقة بقاء الجماعة فإذا ماذالت العقيدة زالت الجماعة وانحلت وانقرض وجودها . والعقيدة كما يقول علال الفاسى — هى منتهى ما تصل إليه الجماعة لحفظ كيانها وتحقيق أهدافها الفطرية فى قيام حياة إجتماعية منتظمة متحركة ودائمة ، وما دامت العقيدة فإن الجماعة تدوم ، فإذا زالت فإن هذه الجماعة تنحل وينقرض وجودها حيث لا يوجد عامل من عوامل الفناء فى الأمم وفى الجماعات إلا وهو ناشىء عن

ضعف العقيدة أو زوالها . وقد تعيش المجتمعات بالعقائد الخرافية وقد تعيش بالصادق من العقيدة ولكنها لا يمكن أن تعيش بغير إعتقاد . . بل إن الحضارات الحقيقية لا يمكنها أن تسير بغير دين وطاعة ثابته .

• • •

ولا ريب أن التوحيد هو علامة خلافنا مع الفلسفات الوثنية وأن الأخلاق هى خلافنا مع الفلسفات المادية ولا يقر الإسلام نظرية تغير الأخلاق بإختلاف البيئات والعصور ، كما لا يقر نظرية التطور المطلق الذى يتحرك من فراغ ويقر مفهوم الثوابت والمتغيرات كما يرفض الاسلام نظرية تقديس العقل أو عبادة البطل ، أو تقديس الفرد .

والمراد بالأمانة المعروضة على الانسان هى حرية الاختيار والتبعية والمسئولية :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان) .

والمعنى أن السموات والأرض والجبال ما استطاعت أن تحمل هذه الأمانة ولم يكن غير الإنسان مخلوق آخر يستطيع حملها . .

فالإنسان هو المخلوق الذى اختاره الحق تبارك وتعالى للاستخلاف فى الأرض وهى تكشف عن منزلة الإنسان الحقيقية فى نظام العالم ، فالإنسان حاكم للأرض ولكن حاكميته ليست بالأصالة بل بالتفويض وهذا هو معنى الأمانة ، والإنسان مستخلف ومعنى الاستخلاف هو أن يستمد سلطاته المفوضة إليه من جهة أعلى ، والحاكم بالأصالة هو الحق تبارك وتعالى وحاكمية سواه بالعطاء والمنحة .

— ٧ —

وعلى المفكرين المسلمين العمل على تصفية الفكر الإسلامى وتنقيته من العناصر الأجنبية وتوضيح معالم المنهج الاسلامى وبناء موقع حصين تنطلق منه الصواريخ التى تصيب هذه التحديات وتقضى عليها ، ذلك أن التجربة قد كشفت عن عجز هذه الأيدلوجيات (شرقيها وغربيها) عن الاستجابة لأشواق

النفس الإسلامية العربية ذلك أن هذه الأيدلوجيات إنما هى فرضيات عاشت فى الأزمنة القديمة وتشكلت من الأساطير وأوهام الفكر البشرى، ثم ماتت عندما سطعت الحقيقة التى أعلنها الإسلام ثم عادت فى العصر الأخير بفعل التلمودية لتوقظها من جديد ولأنها تلتقى مع أهواء النفوس .. وبعث الدعوة إلى الإباحية والوثنية والمادية فقد وجدت من هذه المرحلة من الحضارة المعاصرة يقظة مؤقتة ، وهى لا تندفع ولا يعلو صوتها إلا بفضل قوة الدفع الخفية التى تضعها تحت الأضواء. وتمهد لها الطريق فى المجتمعات المنهارة.

ولا ريب أن المسلمين يجب أن يكونوا أبعد الناس عن التأثر بهذه السموم وعليهم كشفها وضربها ودعوة البشرية إلى نور الحق الذى يملكونه.

وعلينا أن نتعرف إلى الخطر الذى أصاب أمتنا نتيجة إنتشار أفكار الشيوعية والمادية والوجودية والوثنيات والمفاهيم المادية التى تقوم على الجشع والطمع والحقد .. والتى تستهدف بناء إمبراطورية الربا وتملك نتاج الأمم وخيراتها بغير وجه حق وحرمان أهلها منها.

أقام الإسلام منهج المعرفة ذا الجناحين (عقلا وقلباً) توأمه الثوابت والمتغيرات .. ومن ثم فقد أقام رباطا بين القيم الثابتة التي هي : حقيقة الدين ومنهج العقيدة وبين العمل البشري المتمثل في صورة المجتمع من ناحية وحركة التاريخ من ناحية أخرى فالإسلام لا يقر الفصل بين العلم والعمل :

(يا أيها الذين آمنوا . لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).

فكل علم وكل عقيدة لابد أن يفضى إلى حركة وعمل وتغيير ..

ومع إتصال الحركة تبقى القيم ثابتة على مر العصور لا يعتورها تغيير ، ويبقى عمل الإنسان الذى هو بمثابة التاريخ موضع النظر في اقترابه وابتعاده عن الثوابت الأساسية .

والقيم الإسلامية ثابتة في جذورها ومتغيرة في فروعها ،

فالإسلام يفسح فى إطارات القيم حتى يجعلها مرنة ، وقادرة على التجارب مع العصور والبيئات دون أن تخضع لانحرافات المجتمعات أو سلبياتها التى تخرج على الضوابط الأساسية والحدود الكبرى.

والأخلاق فى الإسلام قيمة ثابتة متصلة بالدين من ناحية بثبات فطرة الإنسان وتكوينه على مدى العصور ، ومفاهيم هذه القيم لا تتغير ، وهناك فارق بينها وبين التقاليد التى تتغير مع الأزمنة والبيئات والتى هى من صنع المجتمعات . ولذلك فإن الفكر الغربى يخطىء فى بناء على نظريته والأنشطارية ، من ناحية إعتماده على المادة وحدها وإنكار جانب الروح ، فيظن أن الأخلاق هى التقاليد ، وفارق بينهما . . فالأخلاق مرتبطة بالدين الحق ، وهى من صنع الله تبارك وتعالى ، أما التقاليد فهى من صنع الإنسان والمجتمعات .

— ٩ —

منهج القـــرآن هو المورد النمير ، ومناهج الفلسفة والعلوم والتصوف هى روافد لا تستطيع أن تقوم بذاتها ، فإذا لم تتصل بجوهر التوحيد الخالص ماتت وأصبحت فكرا بشريا ماديا . ولقد قدم الإسلام عقيدة جامعة بين نور العقل وأشواق الروح عقيدة تخاطب العقل بالدليل والبرهان وتخاطب القلب بالوجدان

والإيمان ، وهى إلى ذلك كل لا يتجزأ لأن العقل والقلب ليسا إلا جهازا واحداً .

وفارق كبير بين مذهب جامع متكامل ومذهب جزئى ، مذهب جامع بين الثبات والتطور ، والروح والمادة ، والواقع والغيب ، والحرية والعدل .

لقد انفصل الفكر الغربى عن قاعدة الإيمان حين عجز عن فهم الحقيقة القائمة على أن مصادر نواميس الكون وقوانينه هى من صنع العزيز الحكيم ، وبذلك وقع الانفصام بين العلم والإيمان ، كذلك فقد انفصل الفكر الغربى عن قاعدة إرتباط خلافة الإنسان فى الأرض بشرط عبادة الله والعمل على بناء المجتمع الربانى وإن تلك هى غاية الوجود الإنسانى ، إن الفكر الغربى يريد أن يبعد إرادة الله عن غايات المجتمع ووسائل الحضارة وبذلك يتجاوز حدوده وضوابطه ، ولو عقل لعرف أن الحضارة والعلم هما عطاء الله عن طريق عقل الإنسان ، ولذلك فلابد لنجاحهما من السير على طريق الله وإلى غايته .

ولقد تبين أن العقل الأوربى ، عقل قاصر وساذج لأنه

لا يستطيع أن ينظر نظرة كاملة إلى الأبعاد المختلفة للأمور ، وأنه يقصر نفسه على ناحية واحدة ، أما ميزة العقل الإسلامي فهى تتمثل فى إيمانه بالتكامل والنظرة الجامعة ، ورفض التجزئة .

وقد وقعت اليهودية تحت سلطان الفكر البابلى القديم ، ووقعت المسيحية تحت سلطان الفكر الاغريقى ومثالية أفلاطون ومنطق أرسطو ، ونجا الإسلام من خطر الفلسفات حين إعتصم بالتوحيد الخالص واعتمد على القرآن الكريم النص الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

— ١٠ —

أمور ثلاثة نحن فى أشد الحاجة إلى إعادة النظر إليها ومراجعتها والكشف عن وجه الحق منها .

(أولا) قضية المرأة وعملها وموقفها من بيتها وتربية أبنائها وهى قضية مثارة فى العالم الإسلامى كله ، فقد آن الأوان لإعادة تقييم هذه القضية ومعرفة حساب الأرباح والخسائر ، وفقاً لقانون عدم التضحية بالكثير إزاء القليل، وبالباقى إزاء الفانى ، ذلك أن تضحية جيل من الأطفال فى سبيل تحقيق رغبات عارضة هو خسارة كبرى .

(ثانياً) إعادة النظر فى قضية التعليم والتربية من جديد ، فى ضوء الهدف الواضح الذى يرمى إلى تحرير مناهج التعليم من الآثار التى تركها الإحتلال والتغريب والغزو الثقافى فى محاولة الحيلولة دون قيام جيل جديد من الشباب القادر على الربط بين الثقافة والخلق والجمع فى التربية بين النفس والعقل والجسم ، وهو ما تزال مناهج التربية والتعليم فى العالم الإسلامى قاصرة عنه .

(ثالثاً) إستكمال الوسائل الخاصة بتطبيق الشريعة الإسلامية والاستهداء بها فى مختلف القوانين المطبقة فى مجالات الإجتماع والسياسة والاقتصاد على أساس أن الشريعة الاسلامية هى مصدر لجميع القوانين .

— ١١ —

إن المسلمين اليوم فى أشد الحاجة إلى إعادة بناء المقومات الفكرية والثقافية والاجتماعية للإنسان المسلم لكى يقوم بدوره الحضارى مرة أخرى سواء أكان ذلك فى أفق المجتمع الاسلامى أم فى المجتمع العالمى ، وكذلك مضاعفة قوى الأمة الاسلامية للجهاد والحماية ، لذلك بعد أن حرصت الدول الكائدة على أضعاف الأمم الاسلامية بتقليل عددها حتى تعجز عن الجهاد ، وعليها أن تكشف زيف الدعوات التى تدعوها

إلى تحديد نسلها ، أو تدمير مقوماتها الخلقية وعلى الأمة الاسلامية أن تطبق مفهومها الأصيل فى التربية وبناء الأجيال ، ذلك لأن ماصاغه الغربيون فى هذا المجال لايصلح لنا أصلا ، وان للأمة الاسلامية نظرة خاصة مستمدة من كتابها وتراثها تجعل ولاءها للاسلام عقيدة وشريعة وسلوكا . وإذا كانت بدايات النصر ومطالع الفجر قد توحى بأن الطريق مفتوح إلى تحقيق الغايات فان المسلمين يجب ألا تخدعهم طمأنينة زائفة أو مستسلمة عن تأكيد الخط وترشيد الطريق وتصحيح المفاهيم وتثبيت الخطى على الطريق إلى الغاية المرجوة .

ويعلن الاسلام خطأ النظريات التى تنادى باطلاق الشباب من التوجيه وتقديم تجارب السابقين، أوالتى تقول افعل ماتشاء أو التى تطلق حرية الأبناء فى التعرف على الأخطار دون حيطة من دين أو عصمة من خلق ، وهو إتجاه فاسد كشفت تجربة المجتمعات الغربية لنا عن أخطاره وفساده، كذلك فإن من الخطر إعتماد مقررات علم النفس المادى فى فهم الشخصية الإنسانية .

ويرفض الإسلام الاعتقاد فى تأثير الأفلاك فى حياة الناس وسلوكهم وطبائعهم وتصرفاتهم ، لقد محا الإسلام ما كان من

قبل من مفاهيم زائفة عن علاقة الفلك بأعمال الناس ، أو علاقة الأرقام والبروج والطوالع بالتأثير على الخليقة البشرية .

(١٢)

العبودية لله هى أعظم عطاء الإسلام ، والعبودية لله معناها إطلاق النفس من كل قيد فى هذه الدنيا إلا ما يربطك بالله تبارك وتعالى : إسلام النفس لله أى تجريدها من كل قيد دون إرادة الله ، قيد الهوى والشهرة والمنصب والجاه والحرص: هذه أمور يجعلها الإسلام وسائل يعمل بها الإنسان فى هذه الدنيا .

وعلى المسلم فى رحلة العمل والسعى والعمران أن يبدأ من منطلق الإيمان لهذا الدين وعبوديته للخالق العظيم وأن يذكر أن (العالمين) تعنى الأفق الواسع الرحيب ، وأن إرتباط المسلم بمصدر القوة هذه ينبغى أن ينعكس فى حياته كما انعكست تلك الإرتباطات فى حياة المسلمين الاوائل ، وأن تكون هذه الحقائق ماثلة أمامه دوماً :

لا عبودية إلا لله .

الإنسان مستخلف فى الأرض .

الكون كله مسخر له .

وأن إخوانه البشر ليسوا مسخرين له فلا يحق أن يستغلهم أو يستعبدهم وأن يقيم رباط الرحمة والروابط رباطاً الأهل والمجتمع ، وأن التعارف بين القوميات هو الطريق الأمثل ، وأن يستخدم عمله وفكره لصالح الآخرين بالمودة والرحمة ، وأن الخلافة فى الأرض فى مفهومها الرشيد هى العطاء والسماحة والإخلاص دون تكبر فى الأرض أو إستعلاء على الغير .

— ١٣ —

لم يجعل الإسلام قداسة إلا للكتاب المنزل بالوحى على المعصوم وحديثه وسنته وكل ما عدا ذلك ففيه نظر ، فإن كان على طريق هذا الحق فإنه من تراث المسلمين الذين استحفظوا عليه ، وإن كان مخالفاً له فانه دخيل ، ولا يتحول الأمر عند المسلم من الإعجاب بالقديم إلى تقديس له ، إلا ما أنزل الله وجاء به الرسول .

أما ما كان فى أوروبا بين القرنين الخامس والخامس عشر الميلادى من صحف مكتوبة فليس فيها من الوحى إلا قليل لا يمثل

شيئاً ما ، وكان كل ماهناك مما وضع موضع القداسة إنما هو بشرى صرف من تأويلات العقل البشرى وحده وتحريفات وأهواء ، ولذلك فان خروج الغرب من هذا التراث إلى التجربة التى جاء بها الإسلام إنما كان تحرراً من القيد الثقيل . ولذلك فان الحديث عن التراث والقديم يختلف بين أمر الشرق ـ أمر الغرب ، وإن الحرب القائمة ضد تراث الغرب لاتطابق مافى الإسلام ولاتجد لها شبيها أومثيلا . ومايقوله هؤلاء عن تراث الإسلام هو اصرار على تزييف الحقائق .

لقد تقدمت أوربا عندما خرجت على ذلك الركام الكثيف لانه من باطل الفكر البشرى ، أما المسلمون فلا يتقدمون الا اذا التمسوا هذا المصدر الأصيل ، هذا القرآن ذلك الكتاب الذى هداهم الى العلم والتجريب ، ودلهم على أسلوب المعرفة الصحيح المنزه عن الهوى والغرض والمطمع ، والمسلمون لايحاكمون تاريخهم وتراثهم وأعلامهم الا على أساس من الأصل الثابت : القرآن فاذا وافقه قبلوه واذا عارضه ردوه .

— ١٤ —

الإيمـــان بالغيب أساس فى العقيدة الإسلامية والإيمان بالغيب هـــو الإعتقاد بوجود ماوراء المحسوس ، ان وراء

المحسوسات موجودات يصدق بها العقل وإن كان لا يأتى عليها الحس (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) .

والإيمان بالله مرتبط بالإيمان بالغيب بالعالم الآخر المواجه الذى لا يصل إليه البصر أو السمع ، بعالم الملائكة والجنة والنار والبعث والنشور بعد الموت ويوم القيامة، والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، هذا هو الاعتقاد بوجود ماوراء المحسوس .

والايمان بثبوت النبوة وصدق الوحى ضرورى لفهم مهمة الانسان فى الحياة ، وبغير هذا الفهم لا يستقيم له العمل الصحيح وعلينا أن نعلم أن هناك قوى وطاقات جبارة مجهولة لا يعلمها ولا يحفظنا منها إلا الله وحده تبارك وتعالى . فعلينا أن نلتمس عنده الأمن والاطمئنان عن طريق الإيمان وان نفر إليه وحده فيما نعرف وما لا نعرف لأنه لا مجال الإيمان إلا فى ظاله الوارف الفينان : (ففروا إلى الله : إنى لكم منه نذير مبين) .

وهناك قوى مدمرة : العواصف الهوجاء . والزلازل المدمرة والبراكين المحرقة . والشهب المتلاحقة والأشعة الكونية والأوبئة الفتاكة .

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ! »

— ١٥ —

يدفع الإسلام الانسان إلى الترقى : من الذاتية إلى الغيرية ومن النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ، ويبلغ المسلم مرتبة الايمان باتخاذ طريق الجهاد الأكبر : جهاد النفس وحمله على الحق فى كل لحظة من لحظات الحياة مهما شق هذا الحق على النفس ومهما أهمله الناس ونبذوه دون ضغط خارجى ، ولا خضوع لعوامل الدنيا كالرغبة فى المتاع أو الحياة .

وقد أخطأ أصحاب النظريات المادية حين ظنوا أن الانسان ليس جنساً مستقلا وأنه متطور من جنس الحيوان ، ومن ذلك فهو يتطور إلى « السوبرمان » وهذا كله فى إطار الماديات . ولكن الترقى الحقيقى هـــو الترقى المعنوى ، ترقى الخلق والنفس والروح .

ولقد جاء الاسلام لينقل الانسان من التفكير الشخصى إلى التفكير العام ومن البداوة إلى الحضارة فالايمان يحول

الانسان من كائن « أنانى » إلى كائن إيثارى ، وإن تحقيق ذلك إنما يتم بالعون الإلهى وبهدى الله ، وهذا التحول هو فى الحقيقة بمثابة التحدى الحقيقى للانسان ، فإذا أمكن إعلاء الأخوة الانسانية العامة فوق الخصوصية الفردية فقد إنتفت القبلية والاقليمية والشعوبية .

ولا ريب أن هذا الايثار للغير من عطاء الاسلام للحضارة الانسانية ، فإذا لم يتحقق عادت الانسانية مرتدة إلى الجاهلية المادية الطاغية .

— ١٦ —

إن الانسان ليس روحا فقط (كما تقول البوذية وديانات الهند) وليس عقلا فقط كما يصوره الفكر اليونانى القديم وليس مادة فقط كما تصوره الفلسفات الحديثة ، وليس هو جسداً كما إعتبرته دولة الرومان وأسبارطه فركزت على إبراز مفاتنه والتمتع بجماله ، وعضلاته لينازل الوحوش .

والانسان فى الاسلام عقل وروح وجسد ، تتكامل كلها وتحرص على تغذيتها فإذا توقف عنصر منها عن النمو حدثت الازمة ، فالمذاهب التى تعالج مادياته فقط تحجب روحه وتوقفه

فى أزمة الغربة والقلق والتمزق ، والمذاهب التى تعالجه روحا فقط تحرمه الاستجابة للغرائز والرغبات التى هى من طبيعته ، وقد رسم له الإسلام إلى ذلك كله : أشواق الروح ورغبات الجسد طريقاً وسطاً ، وهو مختلف عن مفهوم الداروينية التى تجعله أرضياً ، ومفهوم « الفرويدية » التى تجعله جنساً خالصاً ومفهوم الفلسفة التجريبية التى تجعله حيواناً ، فالانسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، فهو بالفطرة يهتدى إلى طريق الله حين يصل نفسه بدين الله وأمره ، يحل ما أحله ويحرم ما حرمه .

والواقع أن الانسان لايستطيع أن يحصل على السعادة البشرية إذا إتبع تعاليم البوذية الشرقية أو المادية الغربية فإن هذه تقصره على الروح وتلك تقصره على الجسد ، والمعادلة الصحيحة بين الروح والمادة والنفس والجسم يقدمها الإسلام بالإيمان : ومع الايمان نجد العصمة من فصام الشخصية وانقسامها وهو الذى يحرره من داء الحيرة بين تغليب حياة الروح بالجور على المتعة الحسية أو تغليب حياة الجسد بالاسترسال مع الشهوات أو الاقبال على اللذات الحيوانية فالاسلام يوازن بينهما فى إطار

الضوابط والحدود ويقرر أنه ليس هناك عـــداء بين الروح والجسد

والظاهرة ضحة للباحث فى الأديان والنحل هو نقص منهج الإنسان والنفس والمجتمع فى الديانات السابقة بعد تحريفها واكتماله فى الإسلام . ففى المسيحية رهبانية وفى اليهوديه مادية وفى الإسلام تكامل جامع بين القيم .

— ١٧ —

هذه الأمة لا يجوز أن تأخذ عن غيرها فى عقائدها ومناهجها السياسية والإقتصادية والاجتماعية لأنها أعطيت « منهج الله » وقد وصفت بالأمية تفرقة بينها وبين الأمم التى نزل عليهم كتاب الله فخالفته ، فأصبحت بنزول القرآن عليها هى المهيمنة على المناهج على يد النبى الامى حتى لا يزعم أحد أنه كان على علم سابق بالفكر البشرى .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك : إذاً لارتاب المبطلون) وقد جاءت رسالتها تحمل التحدى للذين أوتوا

العلم من قبلها لتعليمهم مالا علم لهم به : (ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) .

فالأمية ليست صفة دائمة لهذه الأمة ولكنها كانت صفة مرحلة من مراحلها تفرقة بينها وبين الأمم التى نزل عليها كتاب من الله فلم تحتفظ به وخالفته ، ولقد وصف الفكر البشرى بأنه (متبر مافيه وباطل ما كانوا يعملون) وقال الرسول ﷺ : « كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد » .

ويقول محمد إقبال : المسلم لم يخلق ليندفع فى التيار ويساير الركب البشرى حيث سار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية .

وإننا نجد فى الاسلام دعوة رصينة للتقدم تربط ربطاً متيناً بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فالتقدم ليس حتما مخالفاً للقديم أو ضدا له ، إذ هما يرجعان إلى نفس المادة فى لغة العرب . ولعل الحضارة الاسلامية فى جوهرها أميل إلى الاستقرار والمحافظة منها إلى التجديد والتطوير والتغيير ، ولكن هذا لايعارض إمكانية الدفع فى بعض الحالات التى يطغى فيها الجمود ، ولما كان

المسلم مستخلفاً فى الأرض فانه دوماً الانسان المعترف بتواضعه فى عبوديته لله الواحد .

(١٨)

اخشى أن تكون حركات التغريب قد حاولت أن تفرغ الانسان المسلم من كل عقيدة أو فكرة مسيطرة تستحوذ على طاقاته ومواهبه لاقتحام الصعاب وتقديم التضحيات فى سبيل هدف سام وغاية نبيلة .

ويجب أن نكون مستيقظين إزاء خلق مذاهب داخل دائرة الاسلام توصف بالتجديد كالاحمدية والقاديانية ، هذه التى تقدم فكرة الجهاد فى الاسلام على أنها فكرة مؤقتة حتى يستقر الاسلام نفسه كدين ، وتدعو إلى سلوك الطريق السلمية فى الدعوة وعدم مقاومة الأجنبى وهى محاولة من محاولات إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد وتحكيم الخلافات المذهبية من باطنية وغيرها فى توجيه المسلمين ، إن العودة إلى وحدة المسلمين إنما تكون بالعودة إلى بساطة التعاليم قبل تعقدها بالشروح وعدم استقامة التخريج .

وإن إخطر ما يجب التنبه إليه هو التفريق بين مفهوم الاسلام كدين، ومفهوم كلمة دين بصفة عامة وعلى النحو الذى يعرفه الفكر الغربى. فالدين المسيحى ينظم علاقة الانسان بربه ويترك التنظيم الإجتماعى والاسلام لا يقبل هذا الفصل لأنه يجمع بين الدين والدولة.

إن أهم نكبة إصابت المسلمين فى العصر الحاضر هو شعورهم بالنقص نتيجة إيحاء التغريب لهم بذلك واعتقادهم أن طريق التقدم هو طريق التقليد الأعمى لما أتى به الغرب المسيحى من آراء ونظريات، حتى نجد بعض الكتاب العرب قد حملوا لواء المادية الغربية ودعوا إلى إعتناقها بكل حرارة واعتقدوا أن وصفهم بالتقدمية يتطلب منهم حتى أن يقولوا بمادية الكون وهم فى هذا يتنكرون لحقيقة الاسلام التى لا تثبت القدم إلا لخالق الكون والتى تؤكد أن الكون وما فيه أمور محدثة، إقتضت إيجادها حكمة صانع عليم، وإن هناك تعاليم إلهية لا تاريخية أو إنسانية لابد من التقيد بها والخضوع لها والاحتكام إليها.

— ١٩ —

دعا الاسلام إلى تصفية ميراث اليهود فى الربا العالمى.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا) .

وهو جزء من تصفية رواسب الماضى الجاهلى المادى وبدء حياة جديدة . وقد فرق الإسلام بين البيع والربا فأحل الله البيع وحرم الربا .

(وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله) .

وبذلك وضع القاعدة على هذه المادية الجامحة فى الاعتقاد والسلوك التى تقوم عليها اليهودية . ومازال هذا هو طابع اليهودية الواضح اليوم فى الحضارة الغربية إستهدافاً للسيطرة العالمية ، والتى لاتنمو إلا فى ظل إحتكار المال سواء فى تداوله أو تشغيله ولا تنمو إلا فى ظل إنهيار المسيحية كدين يجمع بين أصحاب القوة فى الحضارة الصناعية الحديثة بصدهم عن سبيل الله سبيل الخير العام باعتدائهم على الحق ، ومغالبة أصحاب الرسالات السماوية بالمادية المارقة فى أكل أموال الناس بالباطل وإستخدام الربا ، وبعدم الوفاء بالعهود والمواثيق .

إن مفهوم الاسلام الأصيل عائق خطير وحاجز هام ضد لشر ضلالات التقدميين وشبهات الشعوبيين، الذين يريدون أن يخدعوا الناس بالإقتناع بأن وظيفة الاسلام وظيفة حياتية وأن أحكامه وتشريعاته لم تبق صالحة للعصر ولامنسجمة مع التطور الذى حدث فى العالم، وأنها قد نزلت فى مجتمع بدائى حسب دعواهم وأدت مهمتها فى ذلك المجتمع فإنها لم تبق صالحة فى عصر الذرة والصاروخ !!

وقد نسى هؤلاء أن رسالة الدين الحق هى الأطار الحقيقى للقيم والحضارة والمجتمعات وبدونها لا يستطيع العلم ولا تستطيع الحضارة أن تقدم الانسان إلا الحيرة والقلق والتمزق مهما أعطت من العطاء المادى .

وإذا كان الغرب يقول هذا عن دينه فلأن دينه ليس منهج حياة ونظام مجتمع ولأن معطياته تعارضت مع تجارب العلوم ، الاسلام فإنه قادر على العطاء فى كل عصر ومصر على مدى الأجيال لاتسبقه الحضارة ولا تتقدمه أبداً .

إن سر الحياة مازال مستعصيا على العلم والعلماء ولكنه ليس مستعصيا على المؤمنين بالله ، لأن الله تبارك وتعالى قد أعطاهم إياه حتى لا يضيعوا جهودهم فى البحث عنه وكل ما أعطاه العلم مهما بلغ فهو قليل بالنسبة لما أعطاه الإيمان ، ومازال عطاء العلوم حتى الآن مهما بلغ فهو قليل وعاجز عن تفسير سر الحياة .

وقد جاء العلم بعد قرون ثلاثة من البحث ليقول عالمه جيمس جنتز : إن هذا الكون تصميم خالق أعظم ، خلقه ورسم له قدره حتى نهايته ويقوم على تنفيذ هذا القدر لحظة بعد لحظة .

وصدق الله العظيم (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ،

وعلم الغرب اليوم إنمـــا هو تراث لأمم كثيرة قديمة ومنها المسلمون الذين قدموا المنهج العلمى التجريبى : ولقد كان مفهوم العلم فى الإسلام جامعاً لكل العلوم ومنها الرياضيات والطبيعيات وقد ورد ذكر العلم ومشتقاته فى القرآن فى ثمانمائة وسبعين آية.

وليس العلم وحده ولكن الفكر الإسلامى كله

لقد كان الفكر الإسلامى أساساً أمام الغرب قبل أن يبدأ نهضته . كان أمامه القانون الإسلامى (الشريعة) جامعا مذهب الإسلام فى الاقتصاد ومفهوم الإسلام فى الاجتماع وأصول الاسلام فى السياسة فأخذت الرأسمالية فكرة الحرية وأخذت الديمقراطية فكرة الشورى وأخذ القانون فكرة العدل ، وأخذ المجتمع فكرة المساواة ، ولكن الفكر الغربى رفض مفهوم المعرفة الإسلامى الجامع فى الجناحين ، ورفض اسم الاسلام وروحه من التوحيد والأخلاق وتصرف فى هذا التراث الذى حصل عليه مقطوع الصلة عن جذوره وعن الاتجاه الربانى الأصل، والإنسانى الوجهة وأنكر فضل المسلمين .

إن النظرة البشرية تختلف أشد الاختلاف مع النظرة الربانية فالنظرة البشرية محدودة بما ترى وبالمحسوس وبالمادة، بينما النظرة الربانية واسعة شاملة تعم عوالم النفس والروح وماوراء المادة . ومن هذا فإن الفكر الإسلامى يختلف عن الفكر الغربى بهذه النظرة المتكاملة فى أبعادها الروحية والمادية، الجامعة بين النفس والبدن، والدنيا والآخرة. ففى اليهودية مادية خالصة وفى المسيحية

رهبانية خالصة . أما الاسلام فإنه يجمع نهج الانسان والنفس والمجتمع ، ومن هنا كان عجز المناهج الغربية والأيدلوجيات المادية عن تحقيق المطمح الأسمى للمسلمين والعرب .

لقد إستطاعت « التلمودية » أن تحتوى الفكر الغربى وأن تخرجه عن روح المسيحية ونظرتها المعنوية ، وكانت أولى علامات السيطرة إقرار المسيحية بالربا وإحلاله ، واليوم نجد أن المذهب الفردي والمذهب الشيوعي يصدران عن مفهوم واحد هو المادية والتفسير المادي للتاريخ والعوامل الاقتصادية ، فهم جميعاً يرجعون إليها كل التطورات الاجتماعية ، ولذلك فإن الخلاف بين المذهبين هو خلاف فى الفروع ، أما فى الأساس فإنهما يلتقيان فى النظرية المادية هذه تعلى من شأن الفرد وتفسح الرأسمالية ، وهذه تعلى من شأن الشيوعية التى تسيطر على كل شيء وتعتبر الانسان ترسا فى آلة .

ولاريب أن أكبر إنحرافات التفسيرات التى قام بها الأحبار والرهبان كانت فى تحويل الدين الخالص المتصل بالحنيفية السمحة فى سابقة إلى جنس وإستعلاء بالعنصر .

إن معطيات الاسلام قادرة على أن تحفظ كيان المجتمعات

الإسلامية من التمزق والاحتواء والانهيار . وتمنحها قدرة ذاتية فائقة على مواجهة كل محاولات الإذابة والتشويه التى تتعرض لها حضارة الاسلام . إن هدف النفوذ الأجنبى هو (تعطيل فعالية) الشخصية المسلمة المتكاملة البناء بعزلها عن جذورها الثقافية عن طريق إهمال هذه الثقافة الاسلامية وإنتهاج أسلوب جديد فى تناول المعرفة يتجاوز شمولية الثقافة الاسلامية ويحيلها إلى مادة معزولة تدرس كوحدة قائمة بذاتها لا أثر لها فى بقية المعارف التى يدرسها المتلقى والتى تنطلق فى معظمها من منهج يرمى فى جملته إلى هدم الدين وتشكيك المسلمين فى حضارتهم التى إنفصلت عن حياة المجتمع الشطة التى توجهها حضارة المستعمرين وتدفعها مؤسساتهم الجديدة .

إن معجزة القرآن هى معجزة بيان وفكر وأصالة ، فقد أعطى المسلمين ميراث النبوة كله والفكر والذكر هو المنطلق الوحيد لمعرفة قدرة الله وإدراك قدرها ، وهو مفتاح الارتفاع فوق طفولة البشرية ، بالنظرة الشاملة ذات الأبعاد التى ترتبط بالازل والأبد وبالدنيا والآخرة ، والتى تستمد أول نقطة تحركها من الله تبارك وتعالى ثم تعود إليه جل شانه فى نهاية الجولة .

ثبت أن التجربتين الغربية والشيوعية مرفوضتان فى أفق المجتمع الاسلامى ، وان التجربتين كانتا لمجتمع يختلف عن مجتمعنا ، وأن الماركسية ماهى إلا جزء من نظام غربى ، فهى رد فعل لواقع الرأسمالية الغربية ، التى عجزت عن إقامة مجتمع سليم ، فالرأسمالية والماركسية كلاهما من نبع واحد ، ومفهوم الربا يعلن سيطرته على الاقتصاد العالمى كله .

* ولا ريب أن التفسير المادى للتاريخ الذى قدمه ماركس وتأخذ به الشيوعية باطل وزائف ، وكذلك التفسير الدينى للتاريخ الذى قدمه أرنولد توينبى ، لأنه يقوم على إستعلاء الحضارة الغربية المسيحية ويفسر الأحداث وسير الأجيال فى إطار هذه التبعية فتقف من الإسلام موقفاً ظالما حين يرى أن المجتمع الاسلامى هو حصيلة إندماج مجتمعين متمايزين فى الأصل هما الأيرانى والعربى ولو أنه قال أن الاسلام صهر كل من آمن به فى مجتمع جديد قام على أساس الاسلام دون أن يكون للعناصر أو الدماء أثر فيها لكان مصيباً ، وكذلك أخطأ ماركس حينما فسر وقائع التاريخ تفسيراً إقتصاديا وماديا خالصاً وعجز أن يعرف العوامل المعنوية والدينية التى تفسر أغلب أحداث التاريخ .

إن واقعية الإسلام إنما تتمثل فى عمق نظرته إلى حياة الإنسان ككل متكامل ، والإهتمام بالجوانب المادية والجوانب الروحية معاً : وسلوكه سلوكا وسطاً بين الشدة واللين فى تشريعه ومن أخطاء النحل الأخرى ماحمل البعض عليه أنفسهم من مشقة الرهبانية ومافعله نساك الهند من إحراق الاجساد ومافعله النصارى من التردى من الجبال وترك عمارة الأرض وماعرفته الرهبانية من هجران الزواج والانفراد فى الصوامع وترك طيبات الرزق ، ومنها النحل التى تحرم على أهلها إقتناء المال .

• ومن رحمة الله التى تحول بين الناس وبين إهلاك أنفسهم امامة صنع لبوس لهم لتحصنهم من بأسهم ، فقد جعل سرابيل تقيهم الحر وتقيهم بأسهم وهداهم إلى صنوف العقاقير النباتية ليستشفوا بها من الآلام ومن هنا كان الإسلام أحق الأديان بطول البقاء لتوسطه بين الشدة واللين وإتفاقه على الطبائع المختلفة وتقديمه للإنسان خير الدنيا والآخرة .

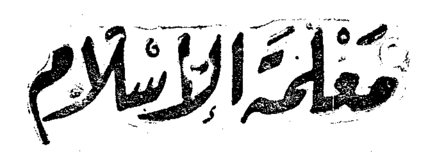
• لا تعرف المجتمعات الإسلامية الفصل بين الدين والحياة كما هو الحال فى الغرب ، إنها تدين بشريعة تنتظم أمور الدنيا كما يقرر أمور الدين ، وعندما يخضع المجتمع الاسلامى لنظام الاسلام

وقانون القرآن فإنه لا يعرف فصلا بين الحكم والإدارة والقانون والاجتماع والفن إلى آخر ما تبدع ملكات الانسان العقلية وتفرزه طاقاته البدنية من نشاطات .

إن مفهوم (الحداثة) الذي يدعو إليه كتاب التغريب والغزو الثقافي لا يستطيع أن يقدم شيئاً ذا بال إذا لم تكن مرتبطة بالأصالة وبوجود الأمة ورسالتها وأهدافها أو التطلع إلى التقدم العلمي والتكنولوجي لن تكون له فائدة إيجابية إذا لم يصدر عن إيمان ببناء الأمة ويتحرك داخل إطار فكرها وقيمها ، وكذلك فإن الحوار مع الفكر العالمي يجب أن يتم في داخل إطار الأمانة التي تحمل لواءها الأمة الاسلامية .

أنور الجندي

موسوعة



يصدرها انور الجندى

فى مائة جزء من حجم الجيب

صدر منها خمسون حلقة

وتصدر أجزائها على التوالى تتناول دراسات :

١ ــ العقائد .

٢ ــ الإنسان المسلم وقضاياه .

٣ ــ قضايا المجتمع .

٤ ــ قضايا الشريعة الإسلامية .

٥ ــ قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية

رقم الإيداع ٢٢٤٥ / ١٩٨٠

مطبعة دار البيان - ت ٩٢٣٨٦١٩